
(c) http://nidaulhind.blogspot.in

العلاقات التجارية بين العرب والهند

للعلامة مولانا السيد سليمان الندوى

هذه خطبة قيمة ألقاها صاحبها الفاضل فى المجمع العلمى الهندى بإله آباد، وقد ترجماها لما تحوى من المعلومات التاريخية النافعة.

بلاد العرب تحيط بها البحار من ثلاث جهات، ومعظم أرضها قاحلة، أو جبال جرداء، والباقى منها قليل الانتاج، فكان لزاما أن تصبح بلادا تجارية. ومن حسن حظها أنها تجاورها من الجهات الأربعة بلاد عظيمة، عامرة، خصيبة: العراق، والشام، ومصر، وأفريقية، وأمامها الهند، وعلى إحدى زواياها بلاد الفرس.

وجدت بين هذه الأقطار والبلاد العربية علاقات عتيقة مباشرة، إلا أننا لا يعنينا هنا إلا ما كان بينها وبين الهند من العلاقات التجارية.

إن البحرين، وعمان، وحضرموت، واليمن، والحجاز، هذه البلاد العربية الواقعة على البحر الأحمر، وبحر الهند، والخليج الفارسى، كانت بطبيعتها أكثر ملائمة للتجارة البحرية. فكانت السفن العربية القافلة من الهند، ترسو بثغر اليمن، فتنقل بضاعتها على ظهور الجمال برآ على ساحل البحر الأحمر إلى الشام ومصر. ومن هنا تتسرب من طريق البحر المتوسط إلى أوربا.

ونحن نجد من فجر التاريخ العرب تجارا، ونرى قوافلهم فى نفس هذا الطريق، متوجهة إلى الشام ومصر، وعائدة منها. وأقدم ما عندنا من تاريخ الشعوب، هو التوراة. فتخبرنا التوراة بعد جيلين اثنين من إبراهيم عليه السلام بهذه القافلة العربية بعينها فى الطريق نفسه. وهى تلك القافلة التى ذهبت بيوسف عليه السلام إلى مصر[١].

وقد ذكر مؤرخو اليونان كذلك هذا الطريق. والحاصل أن تجارة الهند البحرية ظلت فى أيدى العرب من عهد يوسف عليه السلام إلى أيام ماركوبولو، وواسكو دى غاما[٢].

ولما استولى اليونان على مصر، استولوا كذلك على هذه التجارة، لأن الطريق من مصر إلى الشام كانت آمنة لهم. ففقدت التجارة العربية بعض رواجها إذ ذاك.

جاء فى دائرة المعارف البريطانية:

«يرجع رخاء البلاد العربية الجنوبية الغربية فى ذلك العصر إلى التجارة بين مصر والهند، إذ كانت المراكب القادمة من الهند ترسو هنا وتنقل حمولتها إلى الساحل الغربى. ثم تحولت التجارة عن هذا الطريق لأن البطالسة فتحوا طريقا مباشرا بين الاسكندرية والهند»[٣].

ولعل اليونان احتلوا للأغراض التجارية جزيرة سقوطرة، وأسسوا بها جاليتهم التى بقيت آثارها إلى أن شهدها التجار العرب المسلمون[٤].

---

١ - كتاب التخليق (٣٧ : ٢٥).
٢ - تاريخ الهند لافنستون، الباب العاشر (التجارة).
٣ - تاريخ الهند لافنستون، المجلد الثانى ص ٢٦٤ (الطبعة الحادية عشرة).
٤ - رحلة أبي زيد، ص ١٣٤ (طبعة باريز).

والظاهر أن التجارة لم تنتقل من أيدى العرب إلى أيدى اليونان كلية ، لأن المؤرخ اليونانى ، آجاثرشيدس ، الذى وجد قبل قرنين من الميلاد المسيحى ، يخبرنا قائلا « تقدم السفن من سواحل الهند إلى سبا (اليمن) ومن سبا تتوجه إلى مصر »[١].

وهكذا يقول آرتى ميدروس الذى عاش قبل مائة سنة من الميلاد : « إن أهل سبا يشترون البضائع التجارية من جيرانهم ، ويبيعونها لغيرهم ، فتصل من يد إلى يد حتى الشام وبلاد الجزيرة »[٢].

وكذلك يتقرر من شهادات أخرى أن تجارة العرب لم تقف بتاتا فى ذلك العصر ، بل ظلت حية بجنب التجارة اليونانية[٣].

أما الطريق الآخر بين بلاد العرب والهند ، وهو طريق الخليج الفارسى ، فما زال مفتوحا لهم ، وما زال سكان السواحل من الفرس والعرب مشتغلين بتجارتهم براً وبحراً ، فكانوا يردون الثغور الهندية ، ويمرون بجزرها ، ويتوجهون مارين ببنغال وآسام إلى الصين ، ثم يعودون من هذا الطريق نفسه .

إن الطريق بين الهند وأوربا ما زال ولا يزال ذا أهمية كبرى وموجبا لانقلابات تاريخية خطيرة . كان هذا الطريق بيد العرب ، ثم استولى عليه اليونان عند احتلالهم مصر بنحو ثلاثمائة سنة قبل الميلاد . ولما ظهر الإسلام بعد ستة قرون من الميلاد وعلا نجم العرب ، أصبحت يدهم هى العليا من مصر إلى اسبانيا ، وامتلكوا البحر المتوسط ، واستولوا على جزائره الهامة ككريت وقبرص وغيرهما . فوقع هذا الطريق الأكبر التجارى العالمى فى أيديهم وظل تابعا لهم

---

١ - تاريخ الهند لالفستون ، ج ١ ، ص ١٨٢ .

٢ - Duncker's History of Antiquities. Vol. I. P. 310-812 .

٣ - تاريخ الهند لالفستون ، ج ١ ، ص ١٨٢ (طبعة سنة ١٩١٦) .

قرونا عديدة. وقد اجتهدت الشعوب الأوربية فى القرن السابع عشر الميلادى لطردهم من بلاد الروم، ولكنها فى الوقت الذى كان النجاح حليفها فى أسبانيا وأفريقية الشمالية، ظهر الترك فى آسيا الصغرى. فبقى طريق البحر المتوسط فى أيدى المسلمين. واضطرت الشعوب الأوربية إلى البحث عن طريق آخر إلى الهند غير الطريق القديم. وقد نجحت فى مسعاها، فاهتدت إلى ذلك الطريق من قبل أفريقية الجنوبية. وقد ساهم فى هذا الطريق الولنديزيون والبرتغاليون، ثم لحقهم الانكليز والفرنسيس. وأخذ الجميع يزاحمون العرب ويحاولون سلب التجارة من أيديهم. فأدى هذا التزاحم إلى حرب بحرية دامية على سواحل الهند بين الغرب والشرق. انكسر فيها الشرق. فكان هذا الانهزام نواة لجميع الانهزامات الشرقية التى تلته. وقد اتحدت فى هذه الحرب البوارج المصرية والعربية، وبوارج الحكومات الهندوسية والمسلمة فى جنوب الهند، وصمدت لبوارج الشعوب البحرية الأوربية، إلا أنها خابت فى سعيها. فكان من نتيجة هذه الهزيمة أن تجارة سواحل الهند وجزرها، انتقلت من ذلك الزمن إلى أيدى الأوربيين، ولا تزال فى قبضتهم إلى الآن. وقد فقد تجار مدراس العرب الذين يسمون بـ «موبلا» تجارة الهند الجنوبية وجزائرها، وكانوا يملكونها قبل أن دهمهم الأوربيون.

ولم يكتف الغرب بكل ذلك، بل ما زال ساعيا لامتلاك طريق البحر المتوسط القصير، وقد نجح فى ذلك، وليجعل الطريق أقصر، أزال البرزخ البرى الصغير الذى كان يفصل بين البحرين: الأحمر والمتوسط. فحفر قناة السويس، واستولى على مصر، ليأمن على هذا الطريق التاريخى الهام بين الهند وأوربا من الاعتداء.

إن هـذه الحوادث التى ارتبطت بعلاقات الشعوب التجارية الأوربية مع الهند وجزائرها، معروفة فى كتب تاريخ الهند، وهى تدل على الأدوار المختلفة التى مرت على العلائق التجارية بين العرب والهندوس.

سبق لنا القول بأن الطريق الثانى بين الهنـد والبلاد العربيـة، وهو طريق الخليج الفارسى، بقى دائمـا فى أيدى العرب، ولـكن الانقلابات السياسية فى عمان، وحضر موت، والعراق. وخراب الثغور وعمرانها، جعل المركز التجارى هنالك فى تحول مستمر من مدينة إلى أخرى، ومن ثغر إلى غيره.

ثغـــر أبـلة

استولى العرب عـلى العراق سنة ١٤ من الهجرة، وكان قبل ذلك فى العهد الفارسى، الميناء الأكبر والأشهر على الخليج الفارسى للتجارة الهنـدية، هى أبلة الواقعة على مقربة من البصرة. وقد كثرت التجارة الهندية إلى حد، حتى حسب العرب أبلة، بقعة من الهند. وكانت السفن القادمة من الصين والهند ترسو بها ومنها تقصد هذين القطرين[1].

بأى عين كانت العـرب تنظـر إلى تجارة الهنـد ومنتجاتهـا؟ تعلم ذلك مما أجاب به سائح عربى عند ما سأله عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن الهند، وكان جوابه فى غاية البلاغة: فقال «بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر»[2]!

وأراد الخليـفة عمر بعد فتح العـراق أن يمتلك العرب هـذا الثغر كذلك، فكتب إلى قواده «اجعلوها مدينة تجارية للسلمين»[3]. فبقى الثغر على عمرانه إلى

١ - راجع لأحوال أبلة الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى سنـة ٢٢٨ ﻫ ص ١٣٣ (ليـدن) ومعجم البلدان لياقوت الحموى ج ١، ص ٨٨ و ج ٢، ص١٩٦ وتاريخ البصرة النعمان الأعظمى، الحاشية ص١١(بغداد).

٢ - الأخبار الطوال للدينورى ص ٣٢٦ (ليدن).

٣ - معجم البلدان لياقوت، ج ٢، ص ١٩٦ (مصر).

أن تخرب فى حرب الزنج سنة ٢٥٦ ﻫ.

البصرة

وثغر العراق الآخر. هو البصرة. بناها العرب فى نفس سنة الفتح . ١٤ ﻫ، ولكنهم لم يستطيعوا القضاء على مركز أبلة التجارى . ولعل سببه أن البصرة عوضا من أن تكون مدينة تجارية . أصبحت مركزا حربيا وسياسيا للعرب . ومع ذلك أخذت وجهة تجارة الصين والهند تتحول إليها رويدا رويدا. وعظم عمرانها على رغم الانقلابات السياسية الطارئة عليها، لا سيما فى أواخر القرن الأول من الهجرة بعد أن تم استيلاء العرب على السند، فأصبحت سوقا للتجارة الهندية، وقد ازدادت المكوس على السفن الداخلة إليها ازديادا عظيما، حتى صارت من أكبر الموارد لمالية الخلافة فى بغداد، ثم نقصت بعد ذلك، حتى أصبحت أيام المقتدر بالله ٢٢،٥٧٥ دينارا، وذلك سنة ٣٠٦ﻫ.

سيراف

كان هذا الثغر على الخليج الفارسى. أكبر ميناء بعد أبلة. كانت تبعد عن البصرة مسافة سبعة أيام. وهى داخل التخوم الفارسية. بلغت أوج مجدها فى القرن الثالث الهجرى اتخذها أصحاب السفن الكبار. وتجار البحر العظام قاعدة لهم. فكانت تقلع منها السفن الذاهبة إلى الصين والهند. وترسو بها السفن القادمة منها. وقد سجل عمرانها أبو زيد الذى زارها فى القرن الثالث الهجرى فقال: «إنها ميناء عظيم لفارس، ومدينة آهلة كبيرة. تمتد أبنيتها إلى حد النظر. ليس بها مزارع. وتجلب إليها الأرزاق من الخارج»[٢].

٦- تاريخ البصرة للاعظمى، حاشية ١١.

١- معجم البلدان لياقوت، ج ٥، ص ١٩٣ (مصر).

وزارها البشارى المقدسى فى القرن الرابع الهجرى، فوصفها قائلا « لم تر عينى فى العالم الاسلامى أبنية أجل من أبنية هذه المدينة، بنيت من الآجر وخشب السال، وهى شاهقة. يزيد ثمن واحدة منها على مائة ألف درهم»[١].

واقتفى أثر البشارى، الأصطخرى، فزارها وقال عنها: « إنها تضاهى فى فخامتها ورحبتها مدينة شيراز. بناياتها من خشب السال الذى يجلب من طريق البحر من أفريقية الزنجية. وأن أهلها ينفقون المبالغ الكبيرة على البناء، حتى أن التاجر الواحد منهم، ينفق ثلاثين ألفا على بيت واحد. ومع كل بيت، حديقة ويجلب إليها الماء من الجبل»[٢].

ويقول البشارى أن هذا الميناء تخرب بانقلاب فى المملكة الديلمية وبزلزلة فى سنة ٣٦٦ هـ. وقد أرادوا تجديد عمارها[٣]، بل عمروها فعلا، ولكن لم يدم عمرانها، فقد شهدها ياقوت الحموى فى أواخر القرن السادس من الهجرة ووصفها قائلا: « ليس بها إلا اطلال، يعيش فيها الفقراء. وسبب خرابها أن ابن عميرة، عمر جزيرة قيس، ففقدت هذه أهميتها ».

قيس

قيس، أوكيش، جزيرة فى الخليج الفارسى على مقربة من عمان. أنها زاحمت ثغر سيراف، فاستوفت لنفسها تجارة الصين والهند. وكان يحكمها ملك عمان. ولما قدم إليها ياقوت الحموى فى القرن السادس الهجرى، وجدها على صغرها، عامرة، فخمة، نضرة خضرة. وذلك بسبب التجارة الهندية. وكانت ترسو بها جميع المراكب القادمة من الهند، فكانت نتيجة هذا الرواج التجارى

١ . أحسن التقاسيم، ص ٤٢٦ (ليدن).
٢- معجم البلدان، ج ٥ ص ١٩٣ (مصر).
٣ - أحسن التقاسيم، ص ٤٦٤.

على قول ياقوت «عظمت منزلة حاكم الجزيرة العربى فى أعين ملوك الهند، لأنه كان يملك سفنا كثيرة»[١].

ويقول القزوينى (سنة ٦٨٦ ﻫ) «جزيرة قيس، سوق التجارة الهندية، ومرسى لسفنها، وكل ما فى الهند من نفيس وغال، يجلب إليها»[٢].

ثغور الهند

بدأت أسماء الثغور الهندية تطرق أسماعنا من القرن الأول من الهجرة، ويكثر عددها إلى القرن الثالث، ثم يدوم عهدها إلى الآخر. وكان العرب يرون أن أول ثغر من هذه الثغور، هو «تيز» فى بلوخستان، ثم «ديبل» فى السند، ثم تهانه وكهمبات، وسوباره، وصيمور فى غجرات، وكولم ملى فى مدراس، ومليبار، وراس كارى (قمار). وكانوا يتوجهون بعد هذه إلى الجزائر الهندية، وإلى بنغال، ومن بنغال إلى قامرون (قامروب، كامروب) أى إلى مقاطعة آسام الهندية، ومنها إلى الصين. وقد ذكرت هذه الأسماء فى الجغرافية العربية، فكتب ابن حوقل فى القرن العاشر الميلادى عن ثغر ديبل فى السند «أنها سوق كبيرة للتجارة، يتداول فيها التجار أنواعا من التجارة»[٣].

الطرق البحرية التجارية

ذكر سليمان التاجر هذه الطرق البحرية بالترتيب الآتى:

«تنقل البضاعة من البصرة وعمان إلى سيراف، حيث تحمل على المراكب.

١ - معجم البلدان لياقوت ج ٧، ص ١٣٦ (مصر)، وج ٥، ص ١٩٣.
٢ - آثار البلاد القزوينى، طبعة أوربا، ص ١٦١.
٣ - رحلة ابن حوقل، طبعة أوربا، ص ٢٣٠.

ومن هنا تأخذ المراكب الماء الحلو للشرب، فاذا أبحرت من سيراف، رست فى المسقط. ومن هنا كذلك تأخذ ماء الشرب، وتولى وجهها نحو الهند، فتصل بعـــد شهر إلى كولم ملى، ومنها تذهب إلى الصين. وفى كولم ملى مصنع للسفن وترميمها، ومنها يحملون ماء الشرب. ويفرضون هنا على السفن المكوس، فيأخـــذون عشرة آلاف درهم من سفن الصين، ومن عشرة إلى دينار واحد من السفن الأخرى[١].

ويقول أبو زيد السيرافى بعد سليمان بخمس وعشرين سنة: «تصل السفن على يمين الهند إلى عمان، ومن عمان إلى عدن، ومن عدن إلى جدة أو إلى الجار (ساحل الشام) ثم إلى القلزم. وهنا ينتهى البحر. ثم يدور على سواحل البربر فيتوجه إلى الحبشة. وإذا وصلت سفن السيرافيين إلى جدة، لم تجاوزها، بل تجـــد السفن الذاهبة إلى مصر حاضرة بها. فتنقل الحمولة من الأولى إلى الأخرى التى تبحر بها إلى القلزم. ولأهل سيراف معرفة تامة ببحار الهنـــد والصين. والأرباح التى تنتجها التجارة الهندية والصينية البحرية لا تنتجها تجارة بحر القلزم»[٢].

ويقول ابن خردازبه، الذى عاش فى صـــدر القرن الثالث، عن جدة وتجارتها: «تجد هنا محصولات الهند والسند وزنجبار والحبشة وفارس»[٣].

وكذلك يبين المسافات فى طريق الهند من البصرة، فيقول:

من البصرة إلى جـــزيرة خاراك ٥٠ فرسخا
ومن جزيرة خاراك إلى جـــزيرة لاوان ٨٠ فرسخا

---

١ - رحلة سليمان التاجر، ص ١٥، (طبعة باريز سنة ١٨١١).
٢ - رحلة أبي زيد، ص ١٣٦ (باريز سنة ١٨١١).
٣ - كتاب المسالك لابن خردازبه، ص ٦١ (ليدن).

ومن جزيرة لاوان إلى جزيرة إيرون ٧ فراسخ
ومن جزيرة إيرون إلى جزيرة حين ٧ فراسخ
ومن جزيرة حين إلى جزيرة كيش ٧ فراسخ
ومن جزيرة كيش إلى جزيرة ابن كاوان ١٨ فرسخا
ومن جزيرة ابن كاوان إلى جزيرة هرمز ٧ فراسخ
ومن جزيرة هرمز إلى جزيرة تارا مسيرة ٧ أيام

ويقول إن تارا هذه تفصل بين فارس والسند. ومن هنا تتجه السفن إلى ديبل.

من تارا إلى ديبل ٨ أيام
ومن ديبل إلى مصب نهر السند فرسخان
ومن نهر السند إلى أوتغين ٤ أيام

ويقول. ومن أوتغين هذه تبتدأ الهند.

من أوتغين إلى كولى فرسخان
ومن كولى إلى سندان ٥ أيام و١٧ فرسخا
ومن سندان إلى ملى ٥ أيام
ومن ملى إلى بلين يومان

ومن بلين تفترق السبل. فالسفن التي تلزم الساحل، تصل بابتن التي تبعد عن بلين مسيرة يومين.

ومن بابتن إلى سنجلى وكنشكان مسيرة يوم
ومن هنا إلى مصب نهر غوداورى ٣ فراسخ
ومن هنا إلى كيلكان مسيرة يومين
ومن هنا إلى البحر مسافة ١٠ فرسخ
ومن هنا إلى أورنشين مسافة ١٢ فرسخا

والسفن الأخرى تتوجه من بلين إلى سرانديب، ثم إلى جاوه. وتذهب بعضها من بلين إلى الصين مباشرة[1].

﴿ طرق أوربا والهند المارة بالامبراطورية العربية ﴾

إن استيلاء العرب على مصر، والشام، والعراق، وفارس، والبحر المتوسط

١ ـ كتاب المسالك لابن خرداذبه، ص ٦١-٦٦.

والقلزم، وبحر الهند. لم يحل بين التجارة الشرقية والغربية، لأن التجار المسلمين لم يكونوا يدخلون فى حدود أوربا ولا تجار أوربا بلاد المسلمين، بل اليهود كانوا واسطة بين الفريقين. يراهم المسلمون من أهل الكتاب، وكانوا يعرفون أوربا من زمن اليونان. وقد كانت مدينة طرابزون على ساحل البحر الأسود وعلى تخوم آسيا الصغرى والروس، ملتقى التجار المسلمين والتجار المسيحين الذين لم يكونوا يتعدون هذا المكان[١]، ولكن التجار اليهود يتوغلون بسهولة فى العالمين — الاسلامى والمسيحى. قال ابن خردازبه: «هؤلاء اليهود يتكلمون من اللغات العربية. والفارسية. واللاطينية، والفرنجية، والاسبانولية، والسلاوية. وإنهم ينتقلون من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق برا وبحرا، ويتاجرون بالجوارى. والعبيد. والديبا، والأقمشة الحريرية، والسمور، والفراء. والسيوف. يركبون من بلاد الفرنج البحر، فينزلون على الساحل المصرى من بحر الروم، ومن هنا ينقلون متاجرهم على ظهور الدواب إلى بحر القلزم، فيركبون السفن إلى جدة. ومن جدة يتوجهون إلى السند والهند والصين. وإذا قفلوا، قفلوا بنفس هذا الطريق. ولهم طريق آخر من بلاد الفرنج. يركبون منها البحر، فيصلون الأنطاكية (الشام) ومن هنا يتخذون طريق البر إلى الجابية (العراق) فيركبون الفرات من هنا، ويصلون بغداد، ومن بغداد يركبون السفن فى دجلة إلى أبلة. ومن ها يقصدون عمان والسند والهند والصين»[٢].

﴿ التجار الروس ﴾

ويذكر ابن خردازبه مع اليهود. التجار الروس الذين يسافرون براً وبحراً، زاعمين أنهم من النصارى (تنصرت الروس فى القرن العاشر الميلادى) ثم

١ - نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر للصوفى الدمشقى، ص ١٤٦.
٢ - ابن خردازبه، ص ١٥٣ و ١٥٤ (ليدن).

يقول إنهم من السلالة السلافيه (الصقالبة) فيخرجون من بلادهم ويركبون بحر الروم. ويأخذ القيصر منهم العشر على متاجرهم، وينزلون على ساحل من بحر الجرجان (البحر الأخضر) فيركبون الجمال ويقدمون إلى بغداد، حيث يؤدون الجزية زاعمين أنهم من النصارى. وهؤلاء لا يركبون البحر أحيانا. بل يسيرون برآ، فيأتون من أسبانيا أو فرنسا إلى سوس الأقصى (أفريقيـة الشمالية) ومنها يتوجهون إلى طنجة، ثم الجزائر، وتونس، وطرابلس الغرب، حتى يصلوا مصر. ومن هنا يتخذون طريقهم إلى دمشق مارين بالرملة (الشام) ثم إلى الكوفة، ثم بغداد، ثم البصرة، ثم الأهواز. ثم فارس، ثم الكرمان، ثم يمرون بيلوخستان. حتى يصلوا السند، ومن هنا يذهبون إلى الهند، ثم إلى الصين[1].

من خراسان إلى الهند

ويقول المسعودى الذى قدم إلى الهند فى نحو سنة ٣٠٥ مارا ببلخ وهرات: «يصل خراسان بالصين طريق برى كذلك، والهند متأخم لخراسان، وعلى جانب من السند ملتان، وجانب آخر المنصورة، وسير القوافل مستمر بين خراسان والسند والهند، حيث تتصل هذه البلاد بزاملستان»[2] (أفغانستان).

ويقول ابن حوقل الذى عاش قبل محمود الغزنوى بخمسين سنة: «إن كابل وغزنين من أسواق التجارة الهندية»[3] و «أن أسيوان التى سماها العرب بعسيفان، كانت أمارة هندوسية فى بنجاب، وكان بها كذلك التجار المسلمون»[4].

١ - ابن خرداذبه، ص ١٥٣ و ١٥٤ (ليدن).
٢ - مروج الذهب للمسعودى.
٣ - ابن حوقل ص ٣٢٨ (أوروبا).
٤ - فتوح البلدان للبلاذرى ص ٤٤٦ (ليدن).

﴿ موسم السفر البحرى الهنــدى ﴾

ذكر المسعودى مواقيت مد البحر الهندى وجزره وهيجانه، وشهور سير السفن فيه، فقال: «يختلف الموسم عندنا (لعله يقصد بذلك بغداد) عن الهند، ويخرج النـاس من عـندنا فى الصيف ليشتوا فى الهنـد، وقلما تسير السفن فى شهـر يونيو (تير) إلى الهنـــد، والتى تفعل ذلك، تخفف حولتها. وتسمى بالسفن التير شهرية».[1]

﴿ كلمـات هنـــدية فى اللغة العربية ﴾

أدى تردد العرب إلى السواحل الهنـدية إلى دخول كلمـات هندية ذات علاقة بالملاحـة فى الرحلات والجغرافية العربية، وعلقت بألسنة البحارة الفرش والعرب. فمنها كلمة «البارجة» يقول البيرونى إنها هندية، عربوها من كلمة «بيره» (تتبدل الهاء فى العربية بالجيم) وجمعوها على «البوارج». ولما كان قطاع طريق البحر من السـاحل الهندى، ينهبون المراكب، سموهم كذلك «بالبوارج»[2] كما سموا إخوانهم فى بحر الروم «بالقرصان». وتطلق كلمـة البوارج فى اللغـة العربية الحالية على البواخر الحربية.

ومثل كلمة البارجة، كلمة «دونيج» التى جمعوها على «دوانيج»[3] أصلها الهندى «دونكى» (بالكاف الفارسية) وكلمة أخرى هى «هورى» ولا يزال أهل بومبائى يستعملونها، فيقولون «هوڑى» (بالراء الهندية).

وتسربت كذلك إلى العربية ثلاث كلمات أخرى هندية، لم نهتد بعد إلى

---

١ مروج الذهب للمسعودى.
٢ - كتاب الهند للبيرونى، ص ١٠٢ (ليدن)، وعجائب البحر لبرزك، ص ١١٤ (باريز).
٣ - معجم البلدان لياقوت الحموى، كلمة قيس، ج ٧، وعجائب البحر لبرزك، ص ٦٩ (بريل - ليدن).

أصولها، وهى «بليج» و «جوش» و «كنير». يعنون بالأولى سقف السفينة، وبالثانية حبل السفينة، ويطلقون الثالثة على حبل من قشر النارجيل لربط السفن وضم الألواح بعضها إلى بعض. هذه الكلمات كلها. هندية الأصل[1].

وهنالك كلة أخرى تحوى على تاريخ التجارة البحرية الشرقية كله فى ذلك الزمن، ينطقونها بالعربية «ناخوذه» ويجمعونها على «نواخذه». ولكننا فى الهند بشكلها الفارسى آنس. وهى كلة «ناخدا» مركبة من كلمتين، إحداهما هندية، وهى «ناو» أى السفينة، والأخرى فارسية. وهى «خدا» أى المالك. يقول شاعر الفرس، الحافظ الشيرازى:

ما خدا داريم. مارا ناخدا دركار نيست!

(الحاصلات الهندية وتجارتها)

ما ذا كان التجار العرب يحملون من الهند وجزرها إلى بلادهم؟ علمناه من الجواب الموجز البليغ الذى أجاب به سائح عربى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال عن الهند: بحرها در، وجبلها ياقوت، وشجرها عطر! فعرفنا من ذلك أن العرب فى القرن السادس الميلادى كانوا يحملون من الهند، الدر، والأحجار الكريمة، والأشياء العطرية. ويذكر سائح عربى فى القرن التاسع الميلادى السبب الذى يرغب السفن السيرافية عن السير فى القلزم إلى مصر، ويدعوها إلى الرجوع من جدة نحو الهند، فيقول: «إن فى بحر تلك البلاد (الصين والهند) الدر والعنبر، وفى جبالها الأحجار الكريمة ومعادن الذهب. وفى أفواه حيوانها العاج، وفى منتجاتها الساج، والخيزران، والعود والكافور. والقرنفل. والجوزبوا، والبقم، والصندل، وعطور أخرى، و

---

١ - راجع «سواء السبيل فى المولد والدخيل» للدكتور آرنلد.

طيورها الببغاء والطاؤوس. وزبد أرضها. مسك وزباد (عرق حيوان، له رائحة طيبة)»[١].

ويذكر ابن خردازبه (سنة ٣٥٠) ما كان يجلب من حاصلات الهند وبضائعها إلى بلاد العرب والعراق، فيقول: «الأخشاب ذات الروائح العطرية، والصندل، والكافور، والقرنفل، والجوزبوا، والكبابة الصينية، والنارجيل، والأقمشة من الكتان والقطن والحرير، والعاج. ومن سرانديب جميع أنواع الياقوت، والدر، والبلور، والسنباذج الذى تصلح به الجواهر الكريمة. ومن مليبار الفلفل الأسود. ومن نجرات الرصاص. ومن دكان (دكن وهو الجنوب) البقم، والداذى. ومن السند كت (دواء) والقصب، والخيزران[٢].

وقد أطنب المسعودى (سنة ٣٠٣) والبشارى (سنة ٧٣٠) فى وصف نعال كهنبات (كاتهيوار) التى يصدرونها من هنا إلى الخارج[٣]. واشتهرت تهانه (بومبائى) بأقشتها التى كانت تنسج هنا أو تجلب إليها من الداخل، ولكنها تحمل من هذا الثغر إلى البلاد الخارجية، وكانت تسمى بأقشة تهانه[٤].

وقدم المسعر بن المهلل سنة ٣٣١ ﻫ إلى الهند وساح فى جنوبها، فكتب عن كولم (الواقعة فى تراونكور — مدراس): «وهنا تصنع تلك الأوانى الخزفية التى تسمى بالغضائر[٥]. والتى يشتريها الناس فى بلادنا زاعمين أنها صينية، وهى ليست بصينية، لأن طين الصين أصلب من طين كولم ويحمل النار أكثر، ولون طين كولم كدر، بينما لون طين الصين ناصع البياض، وله ألوان أخرى

١ - أبو زيد السيراف، ص ١٣٥ (باريز: سنة ١٨١١).

٢ - كتاب المسالك والممالك لابن خردازبه، ص ٧١ (ليدن).

٣ - مروج الذهب للمسعودى، ج ١، ص ٢٥٣ (باريز) وأحسن التقاسيم للبشارى، ص ٤٨٢ (ليدن).

٤ - تقويم البلدان لأبى الفداء ص ٣٠٩.

٥ - واحدها «غضارة» ومعناها الطين ذو الرائحة الطيبة (راجع معجم البلدان لياقوت ج ٨، ص ٣٤٨-كلمة النهروان).

كذلك. وشجر الساج هنا يطول حتى يبلغ أحيانا مائة ذراع. وكذلك يكثر بها البقم. والخيزران. وعيدان الرماح. ويوجد بها الراوند الصيني، والساذج الهندي الذي يندر وجوده. وهو دواء نافع لأمراض العين. ومن هنا يجلب التجار العود. والكافور. واللبان»[١].

وكانوا يستوردون من الهند نوعا من السم. سماه القزويني بـ «بيش». وهي كلمة «بس» التي معناها السم في لغتنا الهندية[٢].

الهيل

حبة الهيل كما هي لطيفة محببة، كذلك معرفة أصلها اللغوية لذيذة، فانه يوجد بين كارومندل ومليبار رأس، يسمى «رأس هيل[٣]». هاهنا مولد الهيل. يظهر أن الهيل إنما سمي بالسنسكرتية بـ «ايل» وفي الفارسية بـ «هيل» بسبب هذا الرأس «هيلي» ومن هذا سمي في اللغة الأردية بـ «إلائجي». ووقع لهيل ما وقع للعود الذي كانت العرب تجلبه من كارومندل، فسموه بالمندل[٤].

ويقول المسعودي في أواخر القرن العاشر الميلادي: «يستورد التجار من الديب (مالديب، سنغل ديب وغيرهما من جزائر الهند) النارجيل، وكذلك خشب البقم والخيزران والذهب»[٥] وهو يذكر ثروة جزائر مهراج قائلا: «تكثر فيها المطور، ومن هنا يأخذون الكافور، والعود، والقرنفل، وجائفل، والكباب الصيني، والبسباسة، والهيل الأكبر وغيرها»[٦] ويركب بعضهم من هذه الجزائر سفنا

١ - آثار البلاد القزويني، ص ٧٠ جوتنجن (سنة ١٨٤٨).
٢ - آثار البلاد القزويني.
٣ - ابن بطوطه، ج ٢ وتقويم البلدان لأبي الفداء، ص ٣٥٤.
٤ - آثار البلاد القزويني، ص ٨٢.
٥ - مروج الذهب، الباب ١٦.
٦ - أيضاً.

صغيرة، وهي خشبة واحدة، يحفرون بطنها ويتخذونها سفينة، فيستوردون النارجيل، وقصب السكر، والموز، وماء النارجيل، ويبادلونها بالحديد[٦].

ويقول ابن الفقيه (سنة ٣٣٠ هـ) خص الله تعالى أرض الهند والسند بأنها توجد بها سائر الروائح العطرية، والجواهر، كالياقوت، والماس وغيرها، وكذلك الكركدن، والفيل، والطاؤوس، والعود، والعنبر، والقرنفل، والسنبل، والخولجان، والدار صيني، والنارجيل، والهليلة، والتوتيا، والبقم، والخيزران، والصندل، وخشب الساج، والفلفل الأسود»[٧].

شهادة لغة العرب

ولغة العرب نفسها تخبرنا ببعض ما كان العرب يجلبونه من الهند إلى بلادهم، فالسيوف الهندية اشتهرت بينهم وسموها بالهندى، والهندوانى، والمهند. ونذكر هنا بعض الكلمات العربية التى أصلها هندى ومعظمها أسماء للبهارات، والعطور، والأدوية، فنقول:

الأسم العربى	الأسم الهندى	
الصندل	چندن	(Chandan)
المسك	موشكا	(Moshka)
الكافور	كپور	(Kapur)
التنبول	تامبول	(Tambol)
القرنفل	كنك پهل	(Kanak Phal)
الفلفل	پپلى، پپلا	(Pipli, Pipla)

٦ - سليمان التاجر، ص ١٨.

٧ - كتاب البلدان لابن الفقيه الهمدانى، ص ٢٥١ (ليدن).

الاسم العربي	الاسم الهندي	
الفوفل	كوبل	(Kobal)
الزنجبيل	زونجا بيرا	(Zanja Bera)
نيلوفر	نيلو پهل	(Nilo phal)
الهيل	ايل	(Ael)

الأدوية :

جائفل	جائے پهل	(Jai Phal)
الاطريفل	ترى پهل	(Triphal)
الشخيرة	شكهر	(Shakhar)
البليلج	بهيڑا	(Bahera)
الهليلج	هره	(harh)
البلادر	بهلا تكه	(Bhalataka)

أما العود الهندى، والقسط (كت) الهندى، والساذج الهندى، والقرطم الهندى، والتمر الهندى، فهذه الكلمات لا تحتاج إلى بيان أصلها، فانها، تخبره بنفسها. ولما كان العرب يأخذون العود من كارومندل، اختصروا اسمه، فسموه بالمندل[١].

الأقمشة :

الاسم العربي	الاسم الهندي	
القرفس	كرپاس	(Kirpas)
الشيت	چهينٹ	(Chhint)
الفوطة	پٹ	(Pat)

١ ـ آثار البلاد القزويني، ص ٨٢ جوتنجن (سنة ١٨٤٨).

الألوان :

النيلج	نيـل	(Niel)
القرمز	كـرمج	(Kirmich)

الثمـار:

المـوز	موشـه	(Mosha)
النارجيل	ناريل	(Nareal)
الانبج	آم	(Am)
الليمون	ليمـو	(Lemu)

﴿ ثلاث كلمـات هنـدية فى القرآن ﴾

أختلفت العلماء فى وجود كلمة غير عربية فى القرآن المجيد. واستقر الرأى أخيرا على وجود كلمات غير عربية فيه بعد أن عربت واصبحت عـربية. وقد جمع الحافظان ابن الحجر العسقلانى والسيوطى مثل هذه الكلمات. ولنا معشر الهنود أن نفخر بأن كلمات من وطننا قد وجدت مكاناً فى هـذا الكتاب المقدس المطهر. وقد ظهر بعد البحث أن الكلمات التى ظنها القدماء هنـدية، ليست كذلك، فمثلا قالوا، كلمة «ابلعى» هندية، معناها «اشربى» أو أن «طوبى» هندية، كما روى عن سعيد بن الجبير[1]. فهذا كلام واه، لا أساس له. ولكن ما لا ريب فيـه أن ثلاثة من الروائح العطرية التى ذكرت فى وصف الجنة، هى هندية — المسك، والزنجبيل، والكافور.

﴿ شهادة التوراة على قدم التجارة العربية الهنـدية ﴾

تخبرنا التوراة بأن التجار العـرب الذين كانوا يترددون إلى مصر من ألفى

١ - راجع الاتقان فى علوم القرآن (النوع ٣٨).

سنة قبل الميلاد ببضاعتهم، كانوا يحملون البلسان، والصنوبر، وموادا أخرى ذات رائحة عطرية[١]. وأن الهدية التي جاءت بها ملكة اليمن إلى سليمان عليه السلام، احتوت على العطور، وكثير من الذهب والاحجار الكريمة[٢]. وقد كان العرب هم الذين يجلبون الفولاذ والساذج الهندى والبهارات إلى الشام في زمن حزقيال النبي (٥٢٨ ق م) من أوزال (اليمن) فيقول حزقيال: «يقصدون سوقك من أوزال ليبيعوا الفولاذ اللامع والساذج الهندى والبهارات»[٣]. ومن المحقق أن اللبان والأزهار العطرية كانت توجد في اليمن، ولكن موطن الفولاذ اللامع (السيف) والساذج الهندى، والبهارات، إنما هو الهند من القديم إلى الآن. فيظهر من هذا جليا أن علاقات العرب التجارية مع الهند، يرجع عهدها على أقل تقدير إلى ألفي سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام.

حاصلات الهند وتجارتها في نظر السياح العرب

أول ما لفت أنظار العرب من ثمار الهند، هو النارجيل، فيقول السائح العربي، أبو زيد في القرن التاسع الميلادي «يتوجه تجار عمان إلى الجهات التي يكثر فيها النارجيل من أرض الهند، حاملين معهم أدوات النجارين، فيشترون أشجار النارجيل، ويقطعونها. ويتركونها حتى تيبس، ثم يقطعون منها الألواح، ويعملون من قشورها الحبال، فيربطون بها الألواح بعضها جنب بعض. حتى تكون منها السفينة. ويصنعون منها الشراع، ثم يحملون عليها النارجيل وينقلونها إلى عمان، ويربحون بها ثروة طائلة»[٤].

١ - كتاب التخليق ٣٧ : ٣٦.
٢ - التوراة - الأيام ٩ : ٩
٣ - حزقيال ٢٧ : ١٩.
٤ - أبو زيد، ص ١٣١.

ويذكرون بعد النارجيل، الليمون، والأنبج، متعجبين لها، معجبين بها. فيقول ابن حوقل (٣٥٠ هـ) عند ذكره السند: «يوجد فى هذه البلاد ثمر على قدر التفاح، يسمونها 'الليمون' شديد الحوضة. وكذلك يوجد ثمر آخر يشبه الخوخ اسمه الأنبج، وطعمه كذلك يقرب من طعم الخوخ».[١]

ويقول المسعودى «النارنج والليمون كذلك من ثمار الهند الخاصة، نقلوهما من الهند إلى البلاد العربية فى القرن الثالث من الهجرة، إلى عمان أولا، ثم إلى العراق والشام، وكثرت أشجارهما حتى عمت المدن الشامية الساحلية، وبلاد مصر، ولكن الطعم ليس كطعمهما فى الهند».[٢]

ويذكر ابن حوقل (٣٥٠ هـ) حاصلات السند وغجرات وتجارتها كما يلى:

«المنصورة: واسمها القديم، برهمن آباد، يوجد بها الليمون، والأنبج، وقصب السكر. الأسعار رخيصة، والنضار عام.

«آلور: تضاهى فى سعتها ملتان، يحيط بها سور، تقع على شاطىء نهر السند، كثيرة الخضرة، وفيرة الحاصلات، وهى سوق للتجارة.

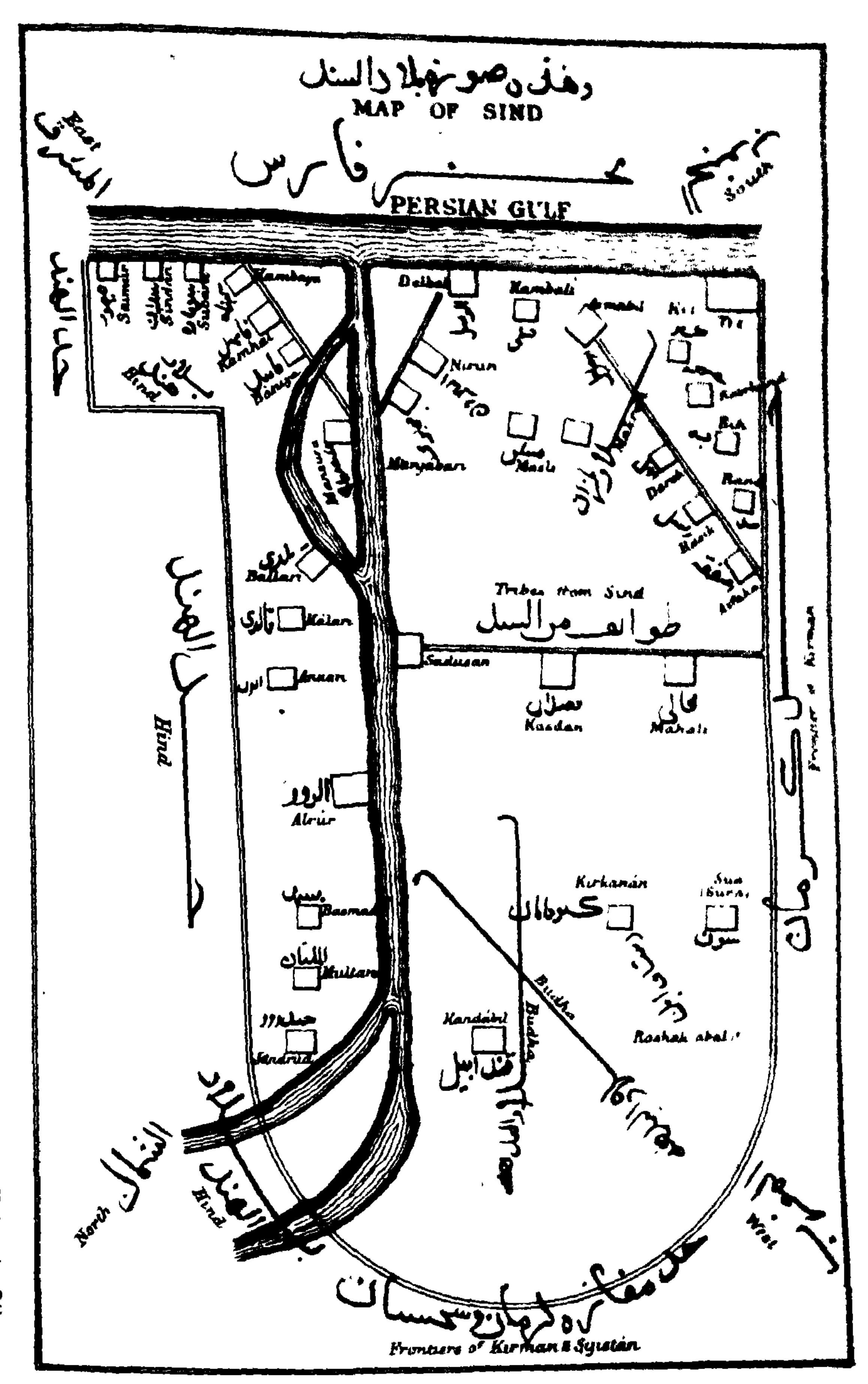
«ديبل: تقع فى شرق نهر السند على ساحل البحر. إنها سوق عظيمة بمتاجرها المنوعة. وهى ميناء هذه البلاد. عمارها منوط بالتجارة.

«كامهل: من كامهل إلى المكران، بلاد البوذيين والميديين، توجد بها جمال ذات سنامين، يغالى فى تقديرها أهل خراسان وفارس لجودة نسلها.

«قدابيل: مدينة البوذيين التجارية. بيوتها أكواخ.

«صيمور وكهنبات (غجرات وكاتهيوار)، يكثر هنا الرز والعسل.

١ - ابن حوقل، ص ٢٢٨.
٢ - مروج الذهب ج ٢، ص ٤٣٨ (أوربا).



هذه أول خريطة السند وغيرات في العالم، رسمها ابن حوقل البغدادي سنة ٣٤٣ هـ - ٩٤٣ م ونقلها إليت من نسخة في مكتبة ملك أوده.

«كلوان: تكثر بها الحبوب المزروعة، والحيوانات، والبهائم، وتقل الأثمار.

«كيزكانان (عاصمة قزدار). الرخص فيها عام. وتوجد بها العنب، والرمان، والأثمار الباردة، ولا يوجد بها التمر.

«قنجبور: أكبر مدن مكران. يكثر بها قصب السكر، والتمر، واشتهر فانيذها (نوع من الحلويات) يصدر منه إلى سائر العالم».

ويأتى البشارى المقدسى (سنة ٣٧٥ هـ) ويفصل أكثر من ابن حوقل، فيقول:

«ويهند - مدينة أكبر من المنصورة، فى غاية من النظافة. تكثر بها الثمار اللذيذة والأشجار الباسقة. والأسعار رخيصة. ثلاثة من من العسل (المن العربى، وزن خفيف) بدرهم. ولا تسئل عن رخص الحليب والخبز، تكثر بها أشجار الخوخ والجوز.

«قنوج (قريبة من ملتان). مدينة كبيرة. لها سور. اللحم فيها رخيص جدا. تكثر بها الحدائق الغناء. السوق نافقة، والموز رخيص، إلا أن القمح فيها قليل. ومعظم غذاء الأهالى. الرز.

«ملتان: تساوى المنصورة فى سعتها. ثمارها أقل من ثمار المنصورة، ولكن الأسعار بها أرخص. ثلاثون منا من الخبز بدرهم، وحلوى الفانيذ، ثلاثة من بدرهم. ولا يكذب تجارها، وتجارتها نافقة رابحة.

«ويصدرون من طوران الفانيذ، ومن سندان الأرز والقماش. تنسج فى السند كلها بسط جميلة. ويرسل إلى الخارج القماش الرقيق والنارجيل، ومن المنصورة نعال كهنبات، ومن السند الفيلة والعاج، والأشياء الثمينة، والأدوية الجيدة. ومن ثمارها الخاصة اثنان: أحدهما يسمى بالليمون، وثانيهما بالأنبج

الذى طعمه لذيذ جدا. وإن ما يوجد فى الشرق وفارس من الجمال البختية، فهو من نسل جمال السند. وهذه الجمال السندية التى تسمى بالفالج، لها سنامان، وهى غالية الثمن، حتى أن الملوك وحدهم يركبونها فى البلاد الخارجية. وكذا أحذية كهنبات غالية الثمن»[1].

وقد أطرى المسعودى على طاؤوس الهند. وقال: «أتوا به من الهند إلى العراق وغيرها من الجهات وجعلوه يتناسل. ولكن أين هو فى قامته ولونه وشكله من طاؤوس الهند»[2].

إن الأقمشة الهندية الرقيقة. ممدوحة مستحبة من قديم الأزمان. واتفقت كلمة الشعوب على أن الهند كانت تنسج بها هذه الأقمشة الرقيقة. ويقال أن القماش الذى كانت تلف به جثث المصريين القدماء، إنما كان من نسج الهند. هذا قول لا يستند إلى دليل. ولكن سائحا عربيا فى القرن الثامن الميلادى يشهد للهند بما يلى:

«الأقمشة التى تنسج بها، لا مثيل لها فى قطر آخر. تبلغ رقتها إلى حد أن ثوبا كاملا منها إذا لف لفا جيدا، يدخل فى حلقة الخاتم! إنها أقمشة قطنية، وقد شاهدتها بعينى»[3].

وتجار العرب كانوا يحملون من الهند قرون الكركدن إلى الصين. وكانت تنقش على هذه القرون التصاوير، وتصنع منها الأحزمة التى يعلو ثمنها فى

---

١ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للبشارى المقدسى ص ٤٧٤-٤٨٢ (ليدن).
يظهر من كتاب الورع للامام أحمد بن حنبل (المتوفى سنة ٥٤١ ﻫ) المطبوع حديثا فى مصر أن نعال السند هذه كانت فى غاية من الجودة والزخرفة، فكان المتورعون لا يستحسنونها لأنفسهم، إذ كانت تليق بالأمراء أبناء الملوك. (باب لبس النعال السندية، ص ١٠١).

٢ - مروج الذهب ج ٢، ص ٤٣٨ (ليدن).

٣ - رحلة سليمان التاجر، ص ٣٠ (باريز).

الصين، حتى يبلغ ثمن واحدة منها إلى ألفين أو ثلاثة آلاف من الدنانير»[١].

وكانوا يستخرجون من عرق حيوان عطرا، يحمله التجار العرب من الهند إلى مراكش[٢]. وكذلك الملح الأسود كانت البلاد الخارجية تستورده من الهند»[٣].

وقد أطنب المسعودى من بين العرب فى وصف التنبول. ووصفه هنا يرجع عهده إلى تسعة قرون. فقال: «تنبت أرض الهند ورقاً يسمى 'التنبول' فاذا مضغوه، مضيفين إليه الجص والفوفل، تحمر الأسنان كأنها حبات الرمان، ويمتلئ الفم بالرائحة الطيبة، ويفرح القلب. وأهل الهند لا يستحسنون الأسنان البيضاء التى لا يصبغها التنبول بالحمرة».

وما كان يمكن فى الزمن الغابر وصول التنبول إلى بلاد العرب، ولكن المسعودى صرح فى سنة ٣٠٥ هـ: «إن الناس هذه الأيام فى اليمن والحجاز ومكة يكثرون من أكل الفوفل»[٤].

وكان العود من الرأس كارى مشهورا عند العرب، إذ كانوا يجلبونه من هذا المكان[٥]. ولما كانوا يسمون هذا الرأس «قمارا» أشتهر العود «بالعود القمارى» عندهم. وكانوا يأخذون المسك من بلاد التبت[٦]، وألماس من جبال كشمير[٧].

(واردات الهند)

علمنا مما مر صادرات الهند، ولكن ما ذا كان العرب يأتون به إلى الهند؟

١ - رحلة سليمان التاجر، ص ٣٠ (باريز).
٢ - تحفة الأحباب لأبى حامد الغرناطى، ص ٤٩ (باريز).
٣ - مفاتيح العلوم للخوارزمى، ص ٢٥٩ (ليدن).
٤ - مروج الذهب ج ٢، ص ٨٤ (باريز).
٥ - رحلة سليمان وأبى زيد، ص ١٣٥.
٦ - أيضاً، ص ١١.
٧ - عجائب الهند لبزرك، ص ١٢٨ (باريز).

إن أهل الجزائر كانوا يشترون منهم ما يحتاجون إليه كالأقمشة مثلا . وقد كتب العرب عن بعض الجزائر أن أهلها يعيشون عراة ، فلا يقبلون على القماش ، ولكن الحديد كانوا يشترونه[١]

وكان طلب الناس للسكة الذهبية السندية عاما فى القرن الثالث (القرن التاسع الميلادى) فكان الدينار الواحد من السند يباع فى الهند بثلاثة دنانير. وكذلك كانت تجلب خواتم الزبرجد فى علب جميلة ، وكان إقبال الهنود على المرجان وعلى حجر عادى رخيص ، يسمى بـ « دهنج » ، عظيما[٢]. وكانت الخمر تجلب من مصر[٣]. والأقمشة الحريرية والسمور والفراء والسيوف من بلاد الروم[٤]. وماء الورد من فارس ، وكان شهيرا فى الهند[٥]. والتمر من بصره[٦] إلى ديبل (السند) وكذلك كان العرب يأتون بالخيل إلى كارومندل[٧].

أهل الهند والبحر

لا نعثر فى ذكر تجارة الهند البحرية والبرية الخارجية على أسماء التجار والبحارة الهندوس ، فقد خلت كتب التاريخ ، والجغرافية ، والرحلات من عصر اليونان إلى زمن العرب من أسمائهم ، واقتصرت على أسماء اليونان ، والروم ، والعرب ، حتى أن رحلة ماركوبولو كذلك لا تذكر شيئا من ذلك . ولذلك رأى إلفستون وغيره من كتاب الانكليز أن الهندوس اكتفوا بسير السفن فى نهرى السند والكنج ، وفى السواحل البحرية من ثغر إلى ثغر، ولم يتجرأوا ع[١]

١ ـ رحلة سليمان وأبى زيد ، ص ٩ .
٢ ـ أيضاً ، ص ١٤٥ .
٣ ـ ابن حوقل ، ص ٢٣١ .
٤ ـ ابن خرداذبه ، ص ١٥٣ (ليدن) .
٥ ـ ابن حوقل ، ص ٢١٣ .
٦ ـ تقويم البلدان لأبى الفداء ، ص ٣٤٩ .
٧ ـ أيضاً ، ص ٣٥٥ .

ركوب البحار وقطعها، حتى أن الاسكندر المقدونى لم يجد فى نهر السند المراكب الكبيرة ولا البحارة، اللهم إلا سفنا صغيرة للسماكين وأمثالهم، إلا ما كان من أهل كارومندل، فانهم بلا ريب ركبوا البحر إلى جزائر جاوه[١].

ولكنا لا نوافق على ما ذهب إليه هؤلاء، بل نرى أن الهندوس، إن لم يكن كلهم فأهل السند وغجرات، عرفوا البحر وركبوه. وإنا لنجد فى كتاب «مانو» وهو من أقدم الكتب السنسكرتية، ما يدل على أنه كان فى الهندوس من يقوم بالأسفار البحرية، فقد قال مانو: «إن الذين شهدوا فى الأسفار البحرية، السلامة، والأقطار، والوقت، والغاية، فما يقرره هؤلاء الذين شهدوا الأمور الأربعة من الربا، فهو مقبول»[٢].

ويقول المؤرخ اليونانى آرين (Arrian) فى تاريخ الاسكندر «إن الاسكندر اضطر إلى أن يصنع السفن لنفسه»، ولكنه كذلك يصرح بأن «الطبقة الرابعة من الهندوس الذين يصنعون السفن ويبحرون بها كانوا يقطعون بها المياه»[٣].

ويظهر من كلامه أن «على فم البحر الأحمر جزيرة، لعلها السقوطرة، كانت بها جالية هندية صغيرة بجنب الجاليات اليونانية والعربية»[٤].

ومما لا يرتاب فيه أحد أن مالديب، وسيلان، وجزائر الملايو، كان من سكانها عدد كبير من الهندوس. وإن عوائد هذه الجزائر، وتقاليدها، وأديانها، بل لغاتها كذلك لناطقة بأصلها الهندى، ولذلك اعتقد السياح العرب وتجارهم أن هذه الجزائر كانت من أرض الهند، وذكروها كأنها من أطراف الهند،

١ - تاريخ الهند لالفستون، الباب العاشر (التجارة).
٢ - كتاب مانوشاستر.
٣ - الفستون ج ١، ص ١٨٣.
٤ - أيضا.

حتى أن سائح القرن التاسع الميلادى، وهو أبوزيد، يقول: «إن رأس كارى كذلك فتحها ملك جاوه»[1] والذى لا ينبغى أن يغرب عن البال أن العرب ما زالوا يلقبون ملك جاوه بـ «مهراج» ويصفون بلاده بأنها مملكة مهراج.

وأكثر من ذلك فان أبا زيد هذا يقول: «لا يأكل أهل الهند من إناء واحد». ويقول: «يأتى الهندوس إلى سيراف (ثغر العراق) فيدعوهم تاجر (عربى) إلى الطعام، فيكونون حينا مائة وحينا آخر أكثر من مائة، إلا أنهم لا يجلسون على مائدة واحدة، بل يوضع أمام كل رجل منهم طبقا يأكل منه، لا يشاركه فيه غيره»[2].

فالظاهر من هذا القول أن الهندوس كانوا يترددون فى عدد كبير إلى ثغور العراق فى العهد العربى، إن لم يكن قبله. وقد ذكر العرب أن الهندوس كانوا يسافرون من الكشمير الأسفل (بنجاب)، إلى السند بحرا»[3].

وهنالك دليل آخر أكبر مما مر، وهو ما ذكره بزرك بن شهريار الناخذا فى كتابه «عجائب الهند» فانه أكثر من تكرار كلمة «بانانية» وقصد بها التجار الهندوس من ركاب السفن، تميزا لهم عن غيرهم من المسافرين. بل أنه ذكر فى كتابه كلمتين تدلان على مدلول واحد، وهما «بانانية» و «التاجر»[4] ليميز بين التجار الهندوس والتجار العرب. وفى البلاد العربية يسمى التجار الهندوس إلى الآن بـ «بانية» ويجمعونها على «بانانية». وهم يتجرون إلى يومنا هذا فى العراق، والبحرين، وعمان، والسودان، والمصوع، وبور سعيد، والقاهرة. ولا يعلم إلا الله من متى يتردد هؤلاء التجار الهندوس من السند، وملتان،

١ - أبو زيد، ص ٩٧.
٢ - أبو زيد، ص ١٤٦.
٣ - عجائب الهند، ص ١٠٤.
٤ - أيضا، ص ١٦٥.

وغجرات إلى تلك البلاد، حتى أننا نراهم فى سنة ٣٠٠هـ جالسين فى سفن العرب على مقربة من عدن![1]

﴿ سفن بحـــر الهند ﴾

كانت سفن بحر الهند تتميز عن سفن البحر المتوسط، فهذه كانت ألواحها تركب بالمسامير الحديدية. بينما ألواح سفن البحر الهندى كان يلصق بعضها ببعض بالحبال الدقيقة.[2] أما حجم هـذه السفن، فكان ضخما. وكانت ذات طبقتين، فيها حجر وغرف وخزان للماء الحلو، وأمكنة معـدة ليس للمسافرين فقط، بل للبضائع أيضاً. وكان عـدد الشغالة والبحارة، والجنود المدافعين المتسلحين بالسهام يبلغ ألفا.[3]

واسمع ما يحكيه الناخذه، بزرك بن شهريار فى سنة ٣٠٦هـ:

« توجهت على سفينة إلى الهند. وكانت معنا سفينتا عبد الله بن الجنيد والسياح، وكانت هـذه السفن الثلاثة ضخمة، كبيرة، اشتهر نواخذتها وبحارتها، وكان فيها التجار، والملاحون، والبنيا، وغيرهم الذين بلغ عددهم مائتان وألف. أما حمولتها، فكانت كبيرة جـدا، لا يسهل قياسها. وقـد بدرت بوادر تهانه (بومباى) بعد أحد عشر يوما ».[4]

فنعلم من هذا ضخـامة هذه المراكـب. فانها كانت تسع، عدا الحمولة، والبحارة، والجنود، لأربعمائة مسافر مع معدات الراحة لهم. أما المراكب التى كانت تقصـد الصين، فكانت أضخم وأوسع، حتى أن عـدد رجال المركب الواحـد كان يبلغ ألفا. منهم ستمائة من البحارة، وأربعمائة من الجنود الذين

---

١ ـ عجائب الهند، ص ١٤٧.

٢ ـ رحلة سليمان، ص ٨٨.

٣ ـ رحلة ابن بطوطه، ج ٢ (السياحة فى الصين).

٤ ـ عجائب الهند، ص ١٣٧.

كانوا يدافعون بالسهام وقذف النِفط. أما عـدد المسافرين فى المراكب، فتستطيع أن تقدره بما مر. وكانت فوق كل مركب ثلاث سفن صغيرة للحوادث الفجائية[١].

أرباح التجارة البحـرية

أما الأرباح من وراء التجارة البحرية. فيمكن أن نقدرها من أقوال بعض السياح. فكانت مدينة ولبهه رائى (فى الهند) تسمى بمدينة الذهب لثروتها. وكان عدد الدكاكين فى عاصمة مهراج (جزيرة جاوا) فوق الحصر. حتى أن دكاكين الصيرفة وحدها. كانت ثمانى مائة[٢].

وكان فى عمان رجل يتاجر باللؤلؤ، فصادف أن حاز على لؤلؤتين نادرتين، اشتراهما خليفة بغداد بمائة ألف درهم[٣].

ويقول واحد من النواخذة: «حملت فى سنة ٣١٧ ﻫ من كله (الهند) إلى عمان من السلع التجارية ما أخذ عليه حاكم عمان ستمائة ألف دينار مكسا. وهذا عدا تلك المائة ألف من الدنانير التى عفى عنها بمروؤته أو أخفى عنه الناس فلم يعلمه»[٤].

وفى السنة نفسها قدم مركب من سرانديب، دفع عن نفسه من المكس ما بلغ ستمائة ألف[٥].

وكان فى عمان رجل من اليهود، يشتغل بالسمسرة، يسمى إسحاق، تخالف

---

١ - رحلة ابن بطوطة، ج ٢ (فى بيان كالكت).
٢ - عجائب الهند، ص ١٣٧.
٣ - أيضا، ص ١٣٦.
٤ - أيضا، ص ١٣٠.
٥ - أيضا، ص ١٥٨.

مع يهودى آخر وسافر إلى الهند، ثم إلى الصين وكسب ثروة عظيمة بالتجارة، حتى أصبح من أصحاب المراكب. وأخيراً عاد بعد ثلاثين سنة فى عام ٣٠٠ هـ، ودفع لحاكم عمان مائة ألف درهم رشوة لكيلا يفتش ما فى مراكبه من البضائع. وكان جلب من المسك كمية كبيرة. حتى أنه باع لتاجر واحد مائة ألف مثقال منها، وللآخرين ما بلغ ثمنه ستين ألف دينار[١].

وكذلك خرج رجل من عمان، وهو فى فقر مدقع، ولما عاد، كان مركب بأسره يحمل بضاعته. فيها من المسك ما يبلغ ثمنه مليون دينار. وبمثل هذا الثمن الأقمشة الحريرية، والأحجار الكريمة. ودفع نصف مليون دينار مكسا[٢].

وملوك السواحل الهندية كذلك كانوا يكسبون من وراء التجارة العربية البحرية. ولأجل ذلك كانوا يجلون قدر العرب[٣]. فقد ذكر ابن بطوطة من مشاهداته فى ثغور الهند الجنوبية أن الملوك الهندوس يراعون خواطر التجار العرب، لأن رفاهية بلادهم كانت من ترددهم إليها. وقد حاز ملوك كالى كت وكارومندل على ثروات طائلة من هذه التجارة البحرية. فلما مات أحد ملوك كارومندل، احتاج عامله المسلم لنقل ما وصل إليه من الذهب والجواهر إلى سبعة آلاف من الثيران![٤]

ولما فتح «ملك كافور» من أمراء السلطان علاء الدين الخلجى، كارومندل وجد فى خزانة الملك المقهور، عدا الاشياء الأخرى ٩٦٠٠٠، منا من الذهب[٥] وخمسمائة من من اللؤلؤ[٦]، والأحجار الكريمة. وإن غضينا الطرف عن أثمان

١ - عجائب الهند، ص ١٠٨.
٢ - معجم البلدان لياقوت، كلمة قيس.
٣ - أيضا.
٤ - جامع التواريخ كما ذكره إليت ج ١، ص ٦٩ و ٧٠ وتاريخ الوصاف كما ذكره إليت ج ٢، ص ٣٢ و٥٢.
٥ - تاريخ ضياء برنى، ص ٣٣٣ طبعة كلكتا.
٦ - خزائن الفتوح لأمير خسرو، طبعة على كره، ص ١٧٨.

اللآلى والجوهرات . فما وجد من الذهب شيء كثير — ٩٦ ألف من ! وكان المن فى أيام علاء الدين ٢٨ رطلا . فيكون وزن الذهب المنهوب ٢٠٦٨٨٠٠٠ رطلا !

وكان جل تجارة كارومندل مع سواحل البلاد العربية ، العراق وفارس .

﴿ اهتداء العرب إلى طريق للهند من بحر الروم ﴾

علمنا مما سبق كيف اهتدى البرتغاليون إلى طريق الهند بدورتهم حول أفريقية . واعتقد الناس بأن هذا الطريق من نتاج مساعى هؤلاء البحارة البرتغاليين . ولكنهم يتعجبون إذا علموا أن هذا الاكتشاف قد سبق إليه البرتغاليين بقرون العرب الذين كانوا يجوبون فى البحر الهندى بمراكبهم . لقد بينا الاختلاف الذى كان فى تركيب سفن البحر الهندى وسفن البحر الرومى ، فقلنا إن ألواح سفن بحر الروم كانت تركب بالمسامير الحديدية . وأما سفن البحر الهندى ، فألواحها كانت تركب بالحبال الدقيقة من قشر النارجيل أو النخل . وقد ذكر سليمان التاجر الذى كان عائشا فى سنة ٢٣٧ هـ والذى تكرر اسمه فى حديثنا هذا ، فى رحلته ما يأتى :

« من الأمور التى علمها الناس فى عصرنا ، والتى كان السابقون لا علم لهم بها ، بل لم تخطر فى بالهم قط ، هو أن البحر الذى تقع فيه الهند والصين ، له صلة ببحر الشام (يعنى به البحر المتوسط) فوقع فى زماننا أن ألواح بعض المراكب من صنع العرب قد تكسرت فى بحر الهند ، وغرق ركابها ، ووصلت الألواح من طريق البحر الأخضر إلى بحر الروم . فتحقق من هذا أن بحر الهند بعد أن يدور عند الصين ، يصل ببحر الروم ، لأن المراكب المخيطة بالحبال لا تصنع إلا فى سيراف . وأن مراكب بحر الروم والشام تركب بمسامير الحديد »[1].

١ - رحلة سليمان ، ص ٨٨ .

﴿ من الذى أوصل واسكو دى غاما إلى الهند ﴾

من المعلوم أن البحارة البرتغاليين بعد أن داروا حول أفريقية ، وصلوا إلى بحر الهند ، إلا أنهم مع ذلك لم يجدوا إلى الهند سبيلا. وقد اعترف به البرتغاليون أنفسهم وكذلك قال العرب أن الذى أوصل البرتغاليين إلى الهند ، هو بحار عربى ، إسمه ابن ماجد ، ولقبه « أسد البحر ». إن الرجل ألف كتبا فى الملاحة ببحر الهند ، توجد نسخ منها فى مكتبة باريز. وقد نشرها فى مجلدين المسيو بال جاثر ، ناشر الكتب الشرقية بباريز. ويوجد فى المجلد الثالث الذى نشره المسيو بال شرح واف لفن البحارة العربى ، وأدوات السفن البحرية. وذكر فى هذا المجلد نقلا عن كتاب « البرق اليمانى فى الفتح العثمانى »[1]. وهو تاريخ لذلك العصر ، كيف وصل البرتغاليون إلى البحر الهندى ، وكيف حاروا فى البحث عن الهند ، وكيف وقع ابن ماجد ، « أسد البحر » ، فريسة فى أيديهم ، فأوصلهم — وهو سكران — إلى الهند .

---

١ - هو من تاليف قطب الدين محمد بن أحمد النهروالى الهندى (بلدة نهرواله من بلاد غجرات) المهاجر إلى مكة ، وكان ناظرا للمدرسة التى أسسها بمكة سلاطين غجرات ، وتوفى بها فى سنة ٩٨٨ هـ. أما كتابه هذا ، فألفه لسلطان بنى عثمان ، سليمان . ونص ما جاء فى الكتاب عن ابن ماجد كما يلى :

« ووقع فى أول القرن العاشر من الحوادث النوادر ، دخول البرتقان (البرتغاليين) . . . من الفرنج . . . إلى ديار الهند . وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق سبة فى البحر ويلجون فى الظلمات ويمرون خلف جبال القمر . . . ويصلون إلى الشرق ، ويمرون بموضع قريب من الساحل فى مضيق ، أحد جانبه جبل ، وبجانب الثانى بحر الظلمات فى مكان كثير الأمواج لا تستقر به سفائنهم وتكسر ، ولا ينجو منهم أحد واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون فى ذلك المكان ولا يخلص من طائفتهم أحد ، إلى أن خلص منهم غراب إلى بحر الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر إلى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر ، يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرنج ، وكان يقال له الملندى ، وعاشره فى السكر ، فعلم الطريق فى حال سكره ، وقال لهم تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا فى البحر ، ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم ، فكثروا فى بحر الهند . . . . »

أما ابن ماجد ، فهو كما ذكره بنفسه فى مؤلفاته : شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن الفضل بن دريك بن يوسف بن الحسن بن الحسين بن المعلق السعدى بن أبى ركائب النجدى. ويظهر من كتبه أنه ولد فى بلدة جلفار من عمان فى حوالى سنة ٨٤٠هـ ويغلب على الظن أنه مات فى سنة ٩٠١ هـ أو بعدها — المترجم .

﴿الفلفل الأسود وأوربا﴾

إن تجار أوربا الأولين الذين بدأوا يترددون إلى الهند من القرن السابع عشر الميلادى، كانوا مغرمين، كما هو معلوم، بالفلفل الأسود، يحملونه إلى بلادهم، ولكن الكاتب الجغرافى العربى، زكريا القزوينى، وكان فى القرن الثالث عشر الميلادى (سنة ٦٨٦ هـ) ذكر بناء على رواية كاتب أسبق على ما يظن فى أحوال مليبار ما يأتى:

«إن الفلفل الأسود يحمل من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب، وأكثر المغرمين به هم الأفرنج الذين يحملونه من ساحل الشام إلى أقصى المغرب»[1].

والظاهر أن الترك باستيلائهم على القسطنطينية وبحر الروم، حرموا أهل أوربا من فلفل الهند، فحملهم غرامهم به على أن يلقوا أنفسهم فى المهالك، فوصلوا الهند من طريق آخر، ليحملوا هذه التحفة إلى بلادهم.

﴿نشيد وطنى لهندى باللغة العربية﴾

استحسنا أن نختم حديثنا هذا بتقديم شعر عربى أنشده هندى فى مدح بلاده ومحصولاتها، مجيبا به عائبا نال من الهند وقدح فى فضلها[2].

وإن هذا الشاعر إسمه، أبو الضلع السندى، وكان عائشا فى سنة ٦٨٦ هـ ويحتمل أن يكون قبل هذا الزمن بكثير. فيكون فى القرن الثالث أو الرابع، لأن دولة العرب دالت فى السند فى نحو هذا الزمن.

أما الشعر، فاليك هو:

---

١ - آثار البلاد القزوينى ج ٢، ص ٨٢.
٢ - أيضا، ص ٨٥.

لقـد أنكـر أصحـابى وما ذلك بالأمثل
إذا ما مدح الهـند وسهم الهـند فى مقتل
لعمرى أنها أرض إذا القطـر بهـا ينزل
يصير الدر والياقوت والدر لمن يعطـل
فمنهـا المسك والكـافور والعنبر والمنـدل
وأصنـاف من الطيب ليستعمل من يتفل
وأنواع الأفاوية وجوز الطيب والسنبل
ومنها العاج والساج ومنهـا العود والصندل
وإن التوتيا فيها كمثل الجبـل الأطول
ومنها النمر والببـر ومنهـا الفيل والدعفل
ومنها الكركى والببغاء والطاووس والجورل
ومنها شجـر الرانج والسـاسم والفلفل
سيوف ما لها مثل قد استغنت عن الصيقل
وأرماح إذا اهـتزت اهتز بها الجحفل

فهل ينكـر هذا الفضل إلا الرجل الأخطل ؟!